أبدعتْـهـا ـ بكدٍّ وعناءٍ ـ أجيالُنا المتعاقبةُ على تلالِ فلسطين ووديانِها: من بساتينَ، وغياضٍ، وأشجارِ زيتونٍ مميّزةٍ داكنةِ الخضْرة، وصبّارٍ فخورٍ عنيد.

إنّ الصهاينةَ ليُضْمرون حقدًا مقيمًا على شجرات الصبّار تلك بنوعٍ خاص. فمنذ أن زيّنَ الفلاّحون الفلسطينيُّون أراضيَهم بالصبّار غدَتْ هذه الشجراتُ الشائكةُ المنيعةُ «موتيفًا» مدهشًا للمناظر الطبيعيّة الرعويّة على امتداد فلسطين. ذلك أنّها كانت الحدودَ الطبيعيّة للمنازل أو للأرض، بل وللقرى والدساكر أيضًا. ولهذا استُهدفتْ على الفور بالاستئصال، لكونها من بين قلائل بَقُوا شاهدين على الحضارة التي ازدهرتْ يومًا، وعلى الأرض التي كانت فيما مضى خَصْبةً ومغذِّية. ولعلّ مستوطني اليوم يحاولون أن يَبْعثواالذكريات التي لم تُنْسَ لما فعله أسلافُهم في حملتهم الأولى.

ويَظْهر أنّ معظمَ الإسرائيليّين لا يعانون فقدانَ ذاكرةٍ انتقائيّاً مُزْمنًا فحسب، بل يعانون أيضًا عمًى جزئيّاً جَنَوْه على أنفسهم. فلا بدّ أن يكون المستوطنون اليهودُ الأوائلُ الذين وطئوا أرضَ فلسطين قد صُعِقوا لرويةِ ما سمّاه الشاعرُ الإنكليزيُّ في القرن السابع عشر جورج سانديز «أرضًا تَفيض لبنًا وعسلاً... مزيَّنةً بجبال جميلة ووديان مُتْرفة.»[1] ولكنّهم لا ريب أنّهم لاحظوا أيضًا شجراتِ الصبّار اللافتةَ، التي ظنُّوا ـ بعقولهم الأوروبيّة ـ أنّها لا تَنْبت إلاّ في الصحراء. ولهذا طَرَدوا من وعيهم كُلَّ ما سوى تلك الشجرات، ولقَّبوا أرضَنا بالصحراء أو بالأرض العاقر التائقة إلى «أيدٍ متحضّرةٍ بيضاء» تَحْرثها وتُزْهرُها.

لكنّ شجرَنا أفْسَدَ أسطورتَهم عن الصحراء. فقد راح زيتُونُنا الطاغي الحضورِ يَحْكي التاريخَ الطويلَ الثابت لجذورنا الضاربة في أعماق الأرض. وجعل صبّارُنا يكْشف الحكاياتِ التي لم تُرْوَ أبدًا، والجرائمَ التي دُفنتْ تحت الأنقاض، والمئاتِ من القرى التي مُحِيتْ قبل ٥٣ سنةً. لم تكن تلك «المخلوقاتُ» الخضراءُ، إذنْ، متفرِّجاتٍ بريئاتٍ؛ بل هنّ قاومن ـ بسلبيّةٍ ولكنْ بضراوة ـ استعمارَ عقولنا وطمسَ ذاكرتنا. ولهذا كان على الأعداء أن يهزموهنّ؛ كان عليهم أن يقتلعوهنّ.

غير أنّ محاولاتهم استئصالَ الصبّار مِنَ الأرض ومِنْ ذاكرتهم ذهبتْ أدراج الرياح: فقد عاد الصُّبّارُ إلى نموِّه وإيناعه. وحين يفهمون خصيصةَ الصبّار الإعجازيّةَ تلك فسيبدأون فكَّ الشيفرات المعقَّدة لذاكرتنا الجمعيّة الخصبة، ولصمودنا «الذي يَعْصى على التفسير،» ولرحلةِ بحثنا عن القيَم.

إنّ الصبّار يعود إلى الحياة، ولكنّ الزيتون ـ مثلَ أرواح البشر ـ لا يعود. وهذه الفكرةُ البسيطة، التي تملّكتني رغم بساطتها، قادت محاولتي للهروب عقليّاً ممّا كان يجري في الشارع من قتلٍ وموجهات إلى خلاصة مفاجئة وقاسية: وهي أنّ على العقول والأيدي التي تصحِّر الزهرَ أن تُوقَفَ، وعلى تصحير العقل أن يُمنع من الانتشار.

رام الله

الهـــــــدف

د. كرميلا آرمانيوس عمري❖

أثناء الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد التلفاز مع ابنتي (وكان عمرُها آنذاك حوالى ٧ سنوات) وهو يعرض جنازةَ امرأةٍ إسرائيليّة قُتلتْ في إحدى العمليّات الفدائيّة. كان زوجُ القتيلة وأبناؤها يبكون في وداعها. ولكنّ ابنتي حاولتْ ألاّ تتأثّر بحزنهم ودموعهم وقالت: «يجب أن نَقْتل الإسرائيليّين انتقامًا لقتلهم لنا، ولكيْ يذوقوا العذابَ الذي نذوقُه عندما نودِّع شهداءنا. فهم المسؤولون عن مأساتنا، ويجب أن يدفعوا الثمن.»

لم أتمكّن من التعامل مع هذه الحادثة. فمن ناحية، أعْلم أنّ ابنتي تأثّرتْ بالأعمال الوحشيّة التي قام بها الاحتلالُ الإسرائيليّ: من قتلٍ للأبرياء، وهدمٍ للبيوت، ومصادرةٍ للأراضي، واعتقالٍ للمواطنين. ولكنّي، من ناحية ثانية، لم أكن أرغب في أن يؤدّي كلُّ هذا إلى أن تَفْقد ابنتي إنسانيّتَها. أردتُ أن أقول لها في حينه: «إنّ المنظر الذي نشاهده محزنٌ فعلاً، وليس من الخطإ أن نَشْعر بحزن عند قَتْل العدو، وإنّ علينا أن نغضب مِنْ كلِّ مَنْ ساهم في أن يضطرنا للقتل للدفاع عن أنفسنا. ولكنّ القتل أو الانتقام ليس هو الهدف، بل نحن مضطرُّون إليه كي ندافع عن أنفسنا.» ولكنّي لم أفعل!

خلال الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد صورَ الشهداء يَحْملون البنادق، وكنتُ أشاهد شبابنا يتباهَوْن بسلاحهم، وكانت جميعُ الأحزاب السياسيّة والأغاني تُشيد بحمل السلاح وببطولة كلّ مَنْ يمتشق السلاح. أنا لا أُنْكر ضرورةَ الإشادة ببطولةِ كلِّ مَنْ يُقدّم حياته في سبيل تحرير الوطن، ولكنّ هناك خطرًا من وقوع التباسٍ بين الهدف والوسيلة: فالهدف هو تحرير فلسطين، وحملُ السلاح هو وسيلةٌ للوصول إلى هذا الهدف.

قبل شهور سمعتُ عن امرأة فلسطينيّة وَقَعَ ابنُها شهيدًا برصاص الاحتلال الإسرائيليّ. امتنعت المرأةُ عن البكاء لأنّ

---

١ ـ Edward Said, **The Question of Palestine** (New York: Time Books), 1980, p.11.

❖ ـ نائبة رئيس جامعة بيرزيت للشؤون الإداريّة والماليّة منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩. حازت دكتوراه في الرياضيّات من جامعة غرب أستراليا (١٩٨٠)، ودرّستْ هذه المادة في جامعة بيرزيت بين عامَيْ ١٩٩٣ و ١٩٩٩. وُلدتْ في حيفا، وتحمل جوازيْ سفر «إسرائيليّاً» وأوستراليّاً، وتعيش في رام الله.

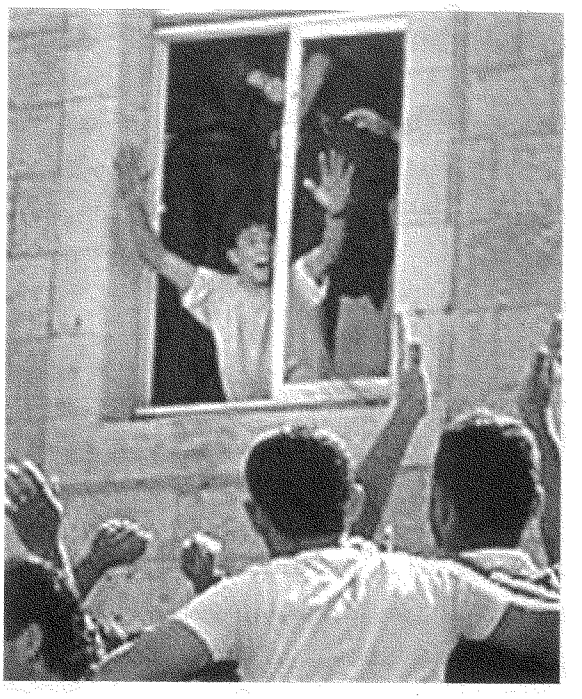

عليها أن «تفتخر» بموت ابنها شهيدًا للوطن، ولاسيّما أنّ زوجها أعْلمها أنّ بكاءها على فقدان ابنها معناه أنّها ليست فخورةً به وقد يؤدّي إلى أن لا تلتقي به في الجنّة! حَبَست المسكينةُ دموعَها وداست على مشاعرها الإنسانيّة احترامًا لابنها الشهيد. ولكنْ تُرى: هل يمكنها أن تواصل حياتها الطبيعيّة وهي لا تملك حقّ التعبير عن شعورها؟

تؤلمني قضيةُ هذه المرأة، وتخيفني فكرةُ الهالة الكبيرة التي نُضطرّ إلى وضعها حول المناضلين حفاظًا على صمودنا؛ فهذا كلّه يَحْرمنا إنسانيّتنا ومشاعرَنا. ثم ما هو الأثر البعيد المدى لمثل هذا الحرمان؟ أليس من الممكن أن يؤدّي إلى تحويلنا أشخاصًا لا يَأْبهون بتعذيبٍ أو قتلِ إنسانٍ آخر بهدف الانتقام؟

كثيرًا ما نشاهد جثةَ شهيد مشوّهةً، ونتعمّد ذكرَ كلّ التفاصيل المتعلّقة بإصابته من أجل إظهار وحشية الاحتلال الإسرائيليّ، غيرَ مكترثين بشعور أهل الشهيد الذين يعيشون ألم جراحه وموته مرةً تلو الأخرى كلّما شاهدوا هذه التقاريرَ الإخباريّة. في أحد التقارير أَمْسك المراسِلُ برأس أحد الجرحى وأزال عنه الضمادات بقسوة لكي يُظهر للمشاهدين مدى الإصابة، غيرَ منتبهٍ إلى أنّه بذلك سبّب ألمًا للجريح وتعامَلَ معه كقطعة أثاثٍ لا مشاعر إنسانيّة لها.

لا أعتقد أنّ هذه هي مشكلةُ الشعب الفلسطينيّ وحده. فلقد أسهمت الشعوبُ العربيّةُ وكلُّ وسائل إعلامها في تشجيع هذه المواقف والإشادة ببطولة الشعب الفلسطينيّ، حتى نسينا أنّ هذا الشعب هو ضحيةُ **أولاً** ومناضل **ثانيًا**. ومن المؤسف حقًا أنّ الإعلام الغربيّ يترجم بطولتنا هذه إرهابًا، فتَظْهر إسرائيلُ وكأنّها هي الضحيّة.

لقد سَلَبَ الاحتلالُ الإسرائيليُّ الشعبَ الفلسطينيَّ أرضَه وحريّتَه وحياةَ الكثيرين من أفراده. فلا يجوز لنا أن نسمح له بأن يسلبه إنسانيّتَه أيضًا.

رام الله

أعـزف أو لا أعـزف؟

سهى برغوتي❖

صديقي سماح،

تحية لك، بل لكم. تحيةً تمرّ في شعاب الجراح التي تَزْخر بها روحي، بل أرواحُنا، في هذه الفترة من عمر الوطن.

أكتب إليك بيد معفّرة بالحزن، متجاوزةً سؤالَ المصير وسؤالَ البقاء إلى سؤال أبسط ولكنه أقسى حتى من اللحظات التي كنتُ أخترق فيها حوارَ الرصاص والقذائف وأتوشّح بحرارة المواجهات والاشتباك اليوميّ متسلّحةً بذاكرة الإرادة التي تَقْتحم السماءَ وَتَنْبذ خيار الرضوخ في انتفاضة عام ١٩٨٧.

سؤالٌ يُحْرق روحي، كما حروقَ جسدي، الناجمةَ عن قنبلة قذفها على صدري جنديٌّ احتلاليٌّ حاقد عام ١٩٩٦ استهدفت القلبَ الذي بقي نابضًا.

سؤال يتعلق بماهية علاقتي بالوطن الآن، الوطن الجغرافيا، التاريخ، الناس. الوطن الحرية، الفرح، الرقصة، الإبداع، الكلمة. الوطن الذي علّمني كيف أغضب، وكيف أحب، كيف أرقص وكيف أتمرد وأناضل، وكيف أدافع عن كرامتنا وحقنا بوردةٍ وبسمةٍ وأغنيةِ حبٍ على أرض محررة.

الوطن الذي تجلّى أمامي بصورة الراحل جمال عبد الناصر، التي أَذْكر وأنا طفلة كم دافعتْ أمي بشراسة من أجل إبقائها معلّقةً على صدر بيتنا العتيق.

الوطن الذي تجلّى في سبعة عشر عامًا ارتبطتُ خلالها بزواج سريّ من شخصٍ مطلوبٍ لسلطات الاحتلال.

الوطن الذي كان يُدفئني عندما أرتعد بردًا وخوفًا، وأنا أنقل البياناتِ السريةَ أو أكتب الشعارات على جدران الشوارع.

الوطن الذي صلّبني في تجربة اعتقال وتعذيب في زنازين كريهة، وزَرَعَ بريقَ التحدي في عينيّ اللتَيْن تنظران إلى وجوه رجال المخابرات الفاشيين.

❖ - مناضلةٌ، وإعلاميّةٌ، ومديرةُ «فرقة الفنون الشعبيّة الفلسطينيّة» التي زارَتْ لبنانَ الربيعَ الماضي، وزوجةُ المناضل الكبير أحمد قطامش الذي تخفّى ١٧ عامًا عن عيون الاحتلال الإسرائيليّ.